

تمصير الأمصار الإسلامية "مدينة البصرة العراقية إنموذجاً"

طه محمد حسين الويه

وزارة التربية والتعليم (مراقبة التعليم مصراته)، ليبيا

Thh112285@gmail.com

ملخص البحث

يتناول هذا البحث دراسة مدينة البصرة العراقية بوصفها نموذجاً لأولى الأمصار الإسلامية التي أمر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتمصيرها خارج شبه الجزيرة العربية، وذلك في سياق الفتوحات الإسلامية وضرورتها العسكرية والإدارية. وتتمحور إشكالية البحث حول سؤال رئيسي: كيف تحولت البصرة من معسكر عسكري مؤقت إلى مدينة حضرية متكاملة، استطاعت خلال فترة وجيزة أن تصبح أحد أهم المراكز الاقتصادية والثقافية والعمرانية في الدولة الأموية، رغم التحديات البيئية والجغرافية القاسية؟ ويهدف البحث إلى تتبع مراحل نشأة المدينة وتطورها، من خلال استقراء تسمياتها المختلفة، وبيان موقعها الجغرافي الفريد، ورصد معالمها العمرانية كالمسجد الجامع، ودار الإمارة، والقصور، والأسواق، والحمامات، والمستشفيات، وشبكة الأنهار التي حُفرت لتوفير المياه العذبة، فضلاً عن تحليل التركيبة السكانية المتنوعة للبصرة التي جمعت بين القبائل العربية والموالي من الفرس والهنود والزنوج. وتكمن أهمية البحث في تقديم دراسة متكاملة للبصرة تتجاوز الجانب العسكري إلى جوانبها الحضارية والعمرانية والاجتماعية والاقتصادية. وقد اعتمد البحث على المنهج التاريخي في جمع المادة العلمية من المصادر الأصلية، وتحليلها ونقدها. وأبرز النتائج التي توصل إليها البحث: تعدد التفسيرات اللغوية لتسمية البصرة وارتباطها بطبيعة التربة، وتميز موقعها الاستراتيجي عند ملتقى البحر والسهل الخصيب والصحراء، وتطور نسيجها العمراني من القصب إلى اللبن ثم الآجر، ونجاحها في التغلب على أزمة المياه عبر حفر شبكة من الأنهار، وتحولها خلال فترة وجيزة من معسكر عسكري إلى مركز تجاري وعلمي وثقافي عالمي، حتى قيل: "أينما ذهب في البلاد تجد تاجرًا بصريًا".

الكلمات المفتاحية: البصرة، المدن الإسلامية، تمصير الأمصار.

The Founding of Islamic Garrison Cities (Amṣār) – The Iraqi City of Basra as a Model

Taha Muhammad Hussein Al-Wayeh

Ministry of Education (Supervision of Education – Misratah), Libya

Thh112285@gmail.com

Abstract

This research examines Iraqi Basra as a model of the first Islamic garrison towns (amsar) ordered by Caliph Umar ibn al-Khattab outside Arabia, within the context of Islamic conquests and their military and administrative needs. The research problem centers on: How did Basra transform from a temporary military camp into an integrated urban city that soon became one of the most important economic, cultural, and architectural centers in the Umayyad state, despite harsh environmental and geographical challenges? The research aims to trace the city's origin and development by examining its various names, explaining its unique geographical location, and surveying its architectural features such as the congregational mosque, the governor's palace, mansions, markets, baths, hospitals, and the canal network dug to supply fresh water, in addition to analyzing Basra's diverse population of Arab tribes and mawali from Persians, Indians, and Africans. The research's significance lies in presenting an integrated study of Basra beyond the military aspect to its civilizational, architectural, social, and economic dimensions. The research adopted the historical method in collecting material from primary sources, analyzing and critiquing it. Its most prominent findings: multiple linguistic interpretations of Basra's naming linked to soil nature; its strategic location at the meeting point of sea, fertile plain, and desert; its urban fabric's evolution from reeds to mud brick then baked brick; its success in overcoming the water crisis by digging canals; and its rapid transformation into a global commercial, scientific, and cultural center, until it was said: "Wherever you go, you find a Basran merchant."

Keywords: Basra; Islamic cities; Founding of Garrison Cities

المقدمة

اقتضت الضرورة التي فرضتها الفتوحات الإسلامية على المسلمين إنشاء مدن عسكرية أو معسكرات سكنية للجنود المحاربين؛ لتخدم عدة جوانب أهمها: أنه أصبح من غير المنطقي على الجندي المقاتل أن يذهب لزيارة أهله في فترات معقولة لبعده المسافة، فمثلاً المجاهد الذي قدم من اليمن أو عمان يحتاج إلى أشهر أو أيام طويلة لكي يصل إلى موطنه، ويحتاج إلى نفس ذلك الوقت للعودة وهذا يعني أنهم سيضيعون نصف وقتهم وجهدهم في مثل هذه الأسفار الطويلة الشاقة، مما يؤخرهم عن جبهات القتال فترات طويلة، فكانت مدينة البصرة إحدى هذه المدن الناشئة في بداية الدولة الإسلامية، وقد تم بناؤها لضرورات عسكرية، ومن ثم أصبحت مدنية.

إشكالية البحث:

تتمحور الإشكالية الرئيسية لهذا البحث حول السؤال التالي:

كيف تحولت مدينة البصرة من مجرد معسكر عسكري مؤقت في بداية الفتوحات الإسلامية إلى مدينة حضرية متكاملة، استطاعت خلال فترة وجيزة أن تصبح أحد أهم المراكز الاقتصادية والثقافية والعمرانية في الدولة الأموية والعالم الإسلامي، رغم التحديات البيئية والجغرافية القاسية التي واجهتها؟

وتتفرع عن هذه الإشكالية مجموعة من الأسئلة الجزئية:

1. ما الأسباب الحقيقية التي دفعت الخليفة عمر بن الخطاب إلى تخطيط البصرة كمدينة عسكرية دائمة، وكيف تم اختيار موقعها؟
2. كيف أثرت التسميات المتعددة للمدينة (الخريبة، السبيخة، المؤتفكة، أم العراق، قبة الإسلام) في دلالاتها الحضارية والجغرافية؟
3. إلى أي مدى كان التوزيع القبلي (الأخماس الخمسة) عاملاً في استقرار المدينة، وهل ساهم في وحدة المجتمع البصري أم في صراعاته الداخلية؟
4. كيف تطور النسيج العمراني للبصرة من القصب إلى اللبن والآجر، وما الدلالات الحضارية لهذا التحول؟
5. ما دور شبكة الأنهار (الأبله، معقل، الأساورة، أم عبد الله...) في حل أزمة المياه وتحويل البصرة إلى مدينة زراعية وتجارية مزدهرة؟
6. كيف انعكس التنوع العرقي والديني في البصرة (العرب، النبط، الفرس، الزط، الزنج، السباجية، الأحباش) على هويتها الثقافية والاقتصادية؟

7. هل استطاعت البصرة أن تحافظ على دورها الحضاري طوال العصر الأموي، أم تراجعت في فترات معينة بسبب الصراعات السياسية أو البيئية؟

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى تحقيق مجموعة من الأهداف المعرفية والعلمية، يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

1. توضيح أصل تسمية "البصرة"، والآراء المختلفة حولها، وبيان موقعها الجغرافي وأهميته الاستراتيجية بين الخليج العربي والسهل الخصيب والصحراء، وربط ذلك بطبيعة نشأتها.
2. الكشف عن المعالم البشرية والعمرانية التي كانت قائمة في موقع البصرة قبل التمهيد الإسلامي (كالخريبة، والأبلة، وكاظمة)، وبيان دورها في اختيار الموقع.
3. تحليل التوزيع السكاني للبصرة من خلال "خطط الأهالي" التي قسمتها إلى أخماس قبلية (أهل العالية، تميم، بكر بن وائل، عبد القيس، الأزد)، ودراسة أثر هذا التقسيم في الاستقرار الاجتماعي والتنظيم الإداري.
4. تقديم وصف دقيق للمعالم الحضرية في البصرة، مثل: المسجد الجامع، دار الإمارة، القصور، الشوارع، الأسواق، الحمامات، السجون، المستشفيات، وشبكة الأنهار، وبيان تطور هذه المعالم عبر الزمن.
5. تسليط الضوء على أبرز التحديات التي واجهت المدينة، لا سيما ندرة المياه العذبة، وكيفية تعامل الولاة معها بحفر الأنهار (كنهر الأبلة، ومعقل، والأساورة وغيرها)، وما نتج عن ذلك من ازدهار زراعي وتجاري.
6. إظهار كيف أسهم الموقع الجغرافي والتخطيط العمراني في تحويل البصرة إلى مركز اقتصادي وثقافي عالمي، وربط ذلك بتاريخ الدولة الأموية والعصر الإسلامي الوسيط.
7. تقديم البصرة كنموذج تطبيقي لتخطيط المدن الإسلامية في عصر الفتوحات، يمكن الاستفادة منه في الدراسات المقارنة للمدن الإسلامية الأخرى (كالكوكة والفسطاط والقيروان).

أهمية البحث:

تتجلى أهمية هذا البحث في كونه يقدم دراسة عن مدينة البصرة كأحد أهم الأمصار الإسلامية التي أسست في فجر الدولة الإسلامية، ويتجاوز دراستها من الجانب العسكري والسياسي إلى جوانبها الحضارية والعمرانية والاجتماعية والاقتصادية.

منهجية البحث:

اعتمد هذا البحث على المنهج التاريخي، من خلال جمع المادة العلمية من المصادر التاريخية والجغرافية والأدبية الأصلية (ككتب الطبري، وابن الأثير، واليعقوبي، وياقوت الحموي، وابن حوقل)، ثم نقد الروايات المتضاربة وترجيح الأقرب إلى الصحة وفق

القرائن التاريخية والمنطقية، مع التحليل الموضوعي للأحداث والوقائع لاستخلاص الدلالات الحضارية، والربط الزمني والمكاني لتتبع مراحل تطور المدينة من النشأة إلى الازدهار، وأخيراً الاستقراء للوصول إلى نتائج كلية شاملة تعكس دور البصرة في التاريخ الإسلامي. الدراسات السابقة والتوصيات:

1. فاروق عمر فوزي، تاريخ النظم الإسلامية (دراسة لتطور المؤسسات المركزية والمحلية في الدولة للقرون الإسلامية الأولى)، دار الشروق للنشر، عمان، 2010م.
2. شارل بلا، البيئة البصرية وتكوين الجاحظ، ترجمة: إبراهيم الكناي، دار البقطة العربية، دمشق، 1961م.
3. صالح احمد العلي، خطط البصرة ومناطقها، دراسة في أحوالها العمرانية والمالية في العهود الإسلامية الأولى، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1986م.
4. نادية نوري علي، بحث: نشأة البصرة وتطورها العمراني، في القرن الأول هجري، جامعة البصرة، مركز دراسات البصرة والخليج العربي، 2012م.

التوصيات:

1. التنقيب الأثري في مدينة البصرة القديمة.
2. النمذجة الرقمية وثنائية الأبعاد لإعادة بناء الخارطة الرقمية التاريخية.
3. الدراسات الهيدرولوجية التاريخية، بمعنى التركيز على دراسة العلاقة بين مجاري أنهار البصرة وبين انتقال المركز الحضاري عبر العصور.
4. دراسة تاريخ موالي البصرة وآثارها على الجانب الاقتصادي والسياسي والاجتماعي.
5. دراسة الأنثروبولوجية حول مدى أثر المكونات السكانية للبصرة من العرب والفرس والسيابجة وغيرهم، ومدى تأثيرهم على ميدان الحرف والصناعات والعمارة البصرية.

التسمية والموقع الجغرافي:

التسمية: وجد الباحث القاب عديدة للبصرة فهي أم العراق وعين العراق (ابن قتيبة، د.ت، 211/1، 222)، وقبة الإسلام وهي عين الدنيا (ابن قتيبة، د.ت، 211/1، 222)، ولقد وقع تضارب كبير في شرح كلمة "بصرة فكانت التفسيرات التي قدمها اللغويون والمؤرخون تكشف عن هذا الاختلاف، وعلى الرغم من تعدد الآراء، فإن جميع التفسيرات تشير إلى أن كلمة البصرة مأخوذة من الطبيعة الجغرافية للتربة (زكي، 1971م، ص 17 - ناجي، 1986م، ص 56)، وأنهم أيضاً اختلفوا حول لون هذه الأرض وطبيعتها فقد وردت عند الطبري: بأنها كل أرض حجارها حص (الطبري، 1990م، 592/3)، وعند ابن فقيه بأنها: الأرض الرخوة الضاربة إلى البياض (ابن الفقيه، د.ت، ص 187)، كما سميت أيضاً بالسبيخة والمؤتفكة (المسعودي، 1987م، 377/2)، وأما المقدسي فإنه يشير إلى اشتقاق اسمها من الأحجار السود (المقدسي، 1904م، ص 187).

وقيل البصرة الأرض الغليظة التي فيها حجارة تقطع حوافر الدواب، وفي كلام العربي هي الأرض الغليظة. (ياقوت الحموي، د.ت، 430/1)، ورد أنها سميت بصرة نسبة إلى الأرض التي شيدت عليها، والتي كانت مكونة من الحجارة الرخوة البيضاء. (ابن منظور، د.ت، 67/4)، وقد سماها العرب لما دخلوها أول مرة بالخرية (ابن منظور، د.ت، 363/2)، وهناك قول راجح يقول سميت بذلك لتقلب مناخها في اليوم الواحد. (ياقوت الحموي، د.ت، 437/1)، وأيضاً سميت بخزانة العراق.

الموقع الجغرافي: تم اختيار البصرة حسب المواصفات التي حددها الخليفة عمر رضي الله عنه، فكان موقعها عند نافذة العراق الجنوبية، وفوق عتبة من الأرض اليابسة التي تفصل منطقة البطائح عن ساحل الخليج العربي، وعن أطراف الصحراء، فتهيأ لهذا المصر موقع فريد يتشكل في ملتقى البحر والسهل الخصيب والصحراء. (ابن حوقل، د.ت، ص 212)، ويذكر أن الفقيه الهمداني: بأنها تقع في موضع قريب من دجلة بينها وبين دجلة أربعة فراسخ وفيها خليج يجري فيه الماء إلى القصب، وكان فيها أرز وتمر كثير فأمر عتبة الناس بأكل التمر، وترك ما سواه. (ابن الفقيه، د.ت، ص 187-188)، وعن ابن بطوطة في وصفها كانت البصرة من اتساع الخط، وانفساح الساحة، بحيث كان المسجد في وسطها، فمدينة البصرة إحدى أمهات العراق الشهيرة الذكر في الآفاق الفسيحة الأرجاء، ذات البساتين الكثيرة، والفواكه الأثيرة. (ابن بطوطة، 2000م، ص 10)، أما حدود إقليمها الجغرافي الأوسع، فهو من الشرق خوزستان والأهواز، ومن الغرب البرية المتصلة بنجد والحجاز، ومن الجنوب الخليج العربي وبحر عمان ومن الشمال البطائح والسيب من العراق. (الدمشقي، د.ت، ص 178).

أهمية الموقع: يري الباحث أن للبصرة أهمية متميزة في تاريخ التمدن العربي الإسلامي؛ وذلك لأنها أول مدينة عربية أسسها العرب مع مدينة الكوفة، خارج الجزيرة العربية حينما توجهت الجيوش العربية الإسلامية لتحرير العراق من السيطرة الساسانية الفارسية في القرن السابع الميلادي، وعلى خلاف العديد من المدن العربية الأخرى فإن مدينة البصرة استمرت تلعب دوراً هاماً في التاريخ العربي الإسلامي سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وفكرياً منذ مراحلها التأسيسية الأولى تقريباً ولمدة قرون عديدة، وصار للتاجر البصري سمعة كبيرة حتى قيل بأن المرء أينما ذهب في البلاد يجد تاجرًا بصريًا، والمهم أن هذه المدينة تميزت بأهميتها في مجالات عدة لا تشابه الأهمية التي أرادها مؤسسها عتبة بن غزوان منها، فتجاوزت الوظيفة العسكرية لتتفاعل مع ظروف وتطورات ومعطيات جديدة شهدها المجتمع الإسلامي في كافة المجالات. (ناجي، 1986م، ص 129)

وإنَّ موقع البصرة الجغرافي هياً لها أن تكون مركزاً مهماً من مراكز الحياة الاقتصادية في الدولة الإسلامية على أساس نشاطها التجاري المبكر في صدر الإسلام والذي تنامي بسرعة مع مطلع القرن الثاني للهجرة، ولقد كان هذا الموقع المطل على أطراف السهل الخصيب، في منطقة مكشوفة ليس فيها من عوارض جغرافية تحد حدودها. (العلی، 1986م، ص 28)، لذلك كان عاملاً ساعد المدينة على الامتداد، والتوسع في المراحل اللاحقة إلى كل الاتجاهات، وهياً لها ظهيراً زراعياً يؤمن حاجات السكان الغذائية وغيرها. ولا ننسى أيضاً الجانب السلي للمدينة ويتمثل في ظروف بيئية غاية في الصعوبة، لا تسمح للمدينة بأن تكون بلداً أعظم

مما عرفناه، فالمناخ قاس يفتقر للمياه الصالحة للشرب، حيث يذكر ابن خلدون أن العرب في تخطيط المدن لم يراعوا إلا الأهم عندهم من مراعي الإبل، وما يصلح لها من الشجر والماء والملح، ... (ابن خلدون، د.ت، ص 314)، ويصل الباحث إلى نتيجة مفادها أن للبصرة ميزات عديدة كموقعها الجغرافي ولها مساوي أيضاً كافتقارها لمياه الشرب أيضاً.

البصرة قبل الفتح الإسلامي:

كان موقعها قبل تمصيرها، يتكون من أحياء قديمة متباعدة كمساح للعجم، ونذكر منها: الخريبة: وهي من معالم البصرة التي ترد ذكرها في الأخبار، واسمها يوحى بأنه كان فيها بناء أو أبنية مخربة. (صالح العلي، 1986م، ص 122)، ويذكر ياقوت أيضاً بأنها تصغير "خربة" وهي موضع بالبصرة، وسميت بذلك؛ لأن المرزبان كان قد ابنتى بها قصرًا وخرّب بعده، فلما دخل ونزل المسلمون بالبصرة، ابتنوا عنده، وفيه أبنية وسموها الخريبة. (ياقوت الحموي، د.ت، 362/2).

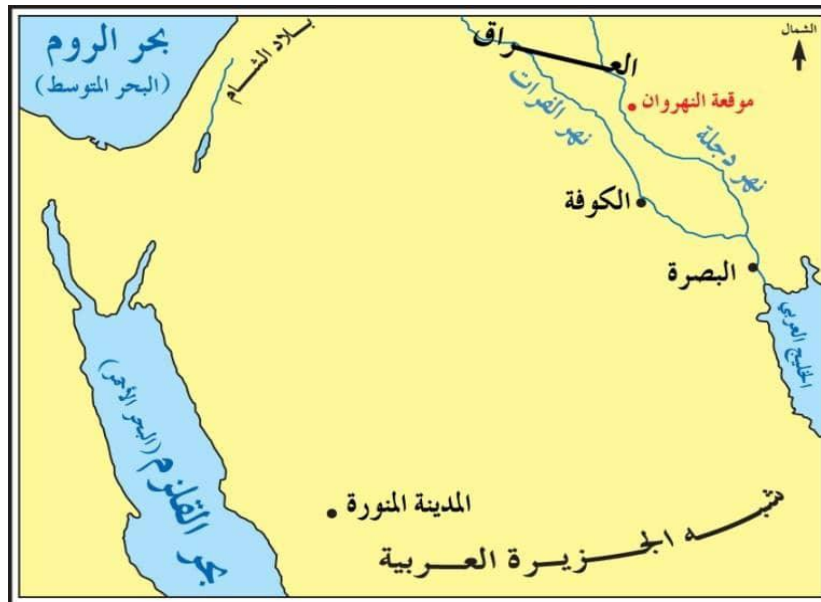
ومما يدل على وجود خربة وبقايا أبنية في هذه المنطقة ما جاء به المدائني، أنه كان في الخريبة دسكرتان من الدساكر السبعة التي وجدها العرب في تلك المنطقة. (ابن سعد، 1968م، 4/1)، وكذلك قبل الخريبة موضع بالبصرة يسمى بصيرة الصغرى (ياقوت الحموي، د.ت، 2 / 362)، فكانت بذلك أول مكان اتخذ عتبة مقرًا له قبل انتقاله إلى موقع المسجد الجامع، وتقع الخريبة في الجهة الغربية من البصرة، وهكذا يتبين لنا من صحة هذه الروايات، أن يكون في الخريبة فضاء كبير يتسع لعسكرة الجيوش ونشوب معارك كبرى. (العلي، 1986م، ص 123-124-125)

الأبلّة: بضم الهمزة والباء واللام المشددة، مدينة بالعراق، بينها وبين البصرة أربعة فراسخ وهي صغيرة المقدار، حسنة الديار، واسعة العمارة متصلة البساتين، عامرة بالناس. (الحميري، 1975، ص 8)، ودون شك أن تاريخ الأبلّة أقدم وأبعد من تاريخ البصرة، ويرى البعض أن الاسم الحقيقي للأبلّة، وهو الاسم اليوناني أبولوكوس "ذلك المرفأ التجاري الذي تأسس أثناء حملة الإسكندر الأكبر الذي يقع على دجلة. (ناجي، 1986م، ص 145).

وتشير المصادر العربية أنها كانت موجودة، وكان للفرس قاعدة عسكرية فيها، لمواجهة ورد تحركات القبائل العربية من بكر بن وائل وقيم، التي كانت تشن الهجمات على قاعدة الفرس في الأبلّة وأنها كانت مأهولة بالسكان، فقد وصفها عتبة بن غزوان في رسالته الموجهة إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأنها كانت مرفأ سفن البحر من عمان والبحرين، وفارس، والهند والصين. (المسعودي، 1987م، 225/4)

وقد اشتهرت هذه الأرض قبل الإسلام بأرض الهند، وكانت لها علاقة تجارية مع الهند، وظلت الأبلّة مركزًا تجاريًا بحريًا مع الشرق، حتى حفرت قناة الأبلّة، التي ربطت هذا الميناء بالبصرة، وجاء حفر هذه القناة لتجنب الدوران. (العمادي، 1997م، ص 275، 273)، بينما يصفها القزويني بأنها كورة بالبصرة طيبة جدًا، نضرة الأشجار، متجاوبة الأطيّار، متدفقة الأنهار ولا تقع الشمس على كثير من أراضيها، ولا ترى القرى من خلال أشجارها، وقالوا جنان الدنيا أربعة: أبلّة البصرة، وغوطة دمشق، وصعد سمرقند،

وشعب بوان (القزويني، 1969م، ص 286)، فهذه المدينة كان قد فتحها المسلمون في سنة 14هـ - 635م، وبقيت عامرة في أيام الخلفاء الراشدين والأمويين، ويبدو أنها خربت في سنة 256هـ 869م أيام العباسيين. (الأعظمي، 2001م، ص 7) كاظمة: كانت هذه البلدة قديماً تمثل جزءاً وأحد أحياء منطقة البصرة، وتقع على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة، فقد ورد تسميتها "كاظمة البحور" وكانت يوماً سكناً لبعض القبائل مثل قبيلة إياد، وقبيلة بكر بن وائل، فكانت قريبة من البادية جهة الجنوب، وواقعة على طريق القوافل من البادية جهة الجنوب، وواقعة على طريق القوافل القادمة من نجد والحجاز، المتجهة نحو العراق، وعند كاظمة ينتهي خندق "سابور" الذي كان يخرج من نهر الفرات عند مدينة هيت وهذا الخندق كان قد حفره سابور لحماية موارد العراق والمناطق العامرة فيه من غزوات البدو في جزيرة العرب ووقايته من خطر الفيضان. وحالياً تقع هذه البلدة جنوبي ميناء أم القصر العراقي قرب مدينة الجهرة في دولة الكويت، ولم يبق من آثارها شيء يذكر سوى اسمها فقط فهي مهملة ولا يسكنها سوى فئة قليلة من القبائل التي تعيش على صيد الأسماك، وهكذا يكون الباحث قد تتبع المحطات التي مر بها موقع البصر تاريخياً وجغرافياً.



شكل رقم (1) يوضح موقع البصرة مع نهر دجلة والفرات

السكان "خطط الأهالي":

السكان: كانت البصرة مأهولة بالسكان قبل الفتح الإسلامي، والمصادر العربية تشير إلى أنه كان للفرس قاعدة، أو مسلح عسكري في البصرة، لمواجهة ورصد تحركات القبائل العربية من بكر بن وائل وتقيم التي كانت تشن الغارات والهجمات تلو الهجمات على قاعدة الفرس في الأبله. (ناجي، 1986م، ص 146).

وقد كان لموقع إقليم البصرة القريب من الخليج العربي وفيه الأبله الميناء البحري المشهور آنذاك، جعله مهبطاً ليضم عناصر من أمم أخرى، إذ استوطن بها على مر السنين أناس اختلفت لغاتهم وثقافتهم وأديانهم، وعادتهم إلى جانب السكان الأصليين، وكان أولهم الآراميون^(*) وهم العرب القدامى سكان المنطقة الأصليين، حيث كانوا يشكلون قسماً كبيراً من أهل السواد، الذين يطلق عليهم الكتاب العرب اسم النبطيين (زكي، 1971م، ص 54)، وعادة ما يستعمل لفظ "النبط" للإشارة إلا الفلاحين الذين يتكلمون الآرامية بالعراق، وهم سكان البطائح (الدوري، 1974م، ص 31)، ويرى الكثير من الكتاب العرب أن هؤلاء كانوا عرباً (ابن خلدون، د.ت، ص 176)؛ ويبدو هذا واضحاً فيما أورده الحميري في العبارة التي قالها عبد المسيح بن عمرو "من أهل الحيرة، لخالد بن الوليد حين سأله: أعرب أنتم أم نبط؟

فقال: نبط استعربنا وعرب استنبطنا (الحميري 1975م، ص 208)، يشكلون جزءاً مهماً من المجتمع العراقي قبل الإسلام، وكذلك العشائر العربية التي كانت تستوطن قرب الأبله، كان لهم وجود قديم أيضاً في المنطقة، فأغلبها من قبيلة بك (العلي، 1986م، ص 39)، وكانت فروع هذه القبيلة قد امتدت من أقاصي طريق الخليج العربي حتى أرض الجزيرة، وسكنت الحوض الأعلى لنهر دجلة، ونسبت إليها تلك الجهات، وصارت تعرف باسم "ديار بكر" جنوب تركيا حالياً (العسكري، 1972م، ص 22)، وإلى جانب هذه القبيلة، قبيلة تميم، وعبد القيس، وغيرها من القبائل الأخرى. (البكري، 1983م، 69/1، 71 - الطبري، 1990م، 558/1).

ولاحظ الباحث أنه ما حل النصف الأول من القرن الأول للهجرة والسابع الميلادي حتى قفزت المدينة قفزات تمدنية واسعة، فتزايد رخاء أهاليها بما جلبته لهم حركات الفتح الإسلامي من واردات وغنائم وعطاء، وتزايدت قوتها البشرية، أما العناصر غير العربية، فقد اتخذت منها موطئاً، وشاركت إخوانهم العرب المسلمين، في مزاوله الأعمال والمهن، فقطنها أقوام أمثال الأساورة، الزط والسيابجة والأصفهانيين والزنج.

خطط الأهالي: اختطت البصرة في بدء أمرها على أساس قبلي، فقسمت إلى خطط سكنت كلاً منها قبيلة، وسميت كل خطة باسم القبيلة التي سكنتها، فقد ذكر الماوردي عن البصرة "أنهم جعلوا المدينة خططاً بحسب القبائل، لكل قبيلة خطة، ثم ظهر اهتمام بالتنظيمات السكانية في المدينة وما هو إلا تخطيط حضري، جاء بسبب التزايد في عدد السكان نتيجة للهجرة الوافدة، وهذا التخطيط أو التنظيم، ينسب إلى الوالي زياد بن أبيه 45 هـ/665م، فهو الذي جعل البصرة خمسة أخماس، يضم كل منها

عددًا من العشائر، وهذه الأخماس هي:

أهل العالية: ويتكون من العشائر الحجازية الأصل، التي استوطنت البصرة، وكان بعضهم من أقدم مقاتلي البصرة، وبرز فيهم رجال كانت لهم مكانة رفيعة في البصرة، وخاصة الثقيفين الذين كانت لهم صلة نسب بأبرز ولاية البصرة في القرن الأول زياد، والحجاج وقد ظلت خطط بعض أهل العالية، قائمة حتى زمن ابن بطوطة، حيث كان الخراب قد زحف على الأطراف الغربية من المدينة. (العلي، 1986م، ص 81)، وأما ابن الأثير فيذكر أن أهل العالية قریش، وكنانة، والأزد، وبصيلة وخشعم، وقيس عيّلان كلها، ومزينة. (ابن الأثير، 1994م، 71/5).

بنو تميم: كان موقع هذا الخمس في الجانب الغربي من المدينة، وتعد إحدى القبائل الكبرى التي استوطنت البصرة منذ التأسيس، وكانت لها مساهمات فعالة في كثير من الحوادث الكبرى في البصرة، ويضم هذا الخمس عددًا من الخطط والمحلات والمربعات التابعة إلى هذه القبيلة، منها بنو منقر، وخطه بني سعد، وخطه بني عامر، ومحلة بني صمان وخطه بني مالك. (ابن دريد، 1979م، 201/1)

بكر بن وائل: وهم مجموعة ربيعة من ربيعة نشيطة، كانوا حراسًا لطريق الحج من البصرة إلى مكة، كما كانوا يقومون بحراسة الطرق، والقوافل التجارية من جزيرة العرب في خرسان وبلاد الترك. (ماسينون، 1981م، ص 18).

عبد القيس: وموقعها شمال البصرة، وتمتد خطط هذه القبيلة ومحلاتها إلى دار الرزق (ناجي، 1986م، ص 139)، وهم في الأصل جماعة بحرية، جاءت من البحرين (ماسينون، 1981م، ص 23)، ومن بين محلاتهم محلة بني عامر، ومحلة الجارودين، وخطط ربيعة بن نزار (ناجي، 1986م، ص 139).

الأزد: وتنتشر هذه القبيلة في المنطقة الجنوبية الشرقية من البصرة، وكانت قد استقرت منذ زمن بعيد في البصرة، ومن هؤلاء أزد عمان، وقد طبعوا البصرة بطابعهم وعرفوا عند المؤرخين باسم اليمانيين (بيلا، 1985م، ص 58-59).

وإلى جانب العشائر العربية سالفة الذكر، وجدت عناصر أخرى من الموالي ضمن هذه الأخماس، فكانت مثلًا: خطة الأساورة تقع ضمن خمس بني تميم، وخطة السياجة كانت تقع ضمن أهل العالية وكذلك درب الأحباش القادمين من الحبشة يقع في خمس أهل العالية أيضًا (ناجي، 1986م، ص 58)، ويبدو أن المهجرات والفتوحات الإسلامية، كان لها دور في الاختلاط والتمزج داخل هذه القبائل مما جعل الوالي زياد يهتم بتنظيم هذه الأخماس حيث أصدر وظيفة رؤساء الأخماس الذين كانوا يختارون ممن لهم مكانة عظيمة في القبائل، وكان تعيينهم بعد إقرار الخليفة، فكان لهؤلاء الرؤساء سلطات واسعة مستمدة من مراكزهم الشخصية والاجتماعية. (ابن قتيبة، د.ت، 223/1)

هذا ونفهم مما تقدم أن هذه الأخماس ما هي إلا نواة التخطيط الحضري والتنظيم السكاني، الذي أدى بدوره إلى الاستقرار، والتمدن الاجتماعي، والسياسي. ولعلها كانت قد ساهمت في ظهور بداية تكوين الخطط المنظمة للعمارة.

خطط المدينة ومعالمها العمرانية:

تمصير البصرة: تعد البصرة أولى الأمصار التي أمر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه باختطاطها، وأول من مصرها عتبة بن غزوان في سنة "14هـ / 635" (النبروي، 1983م، ص 118)، ولم يطب للعرب المقام في المدائن قاعدة بلاد فارس، لعدم تعودهم معيشة المدن الكبيرة، لأنهم فطروا على حب الصحراء ذات الفضاء الواسع والهواء النقي والكلأ والمراعي لما شيتهم التي هي أعز أمواهم ولأن الخليفة عمر رضي الله عنه أراد أن لا يحول بينه وبين المسلمين بحر إذا أراد أن يمددهم بالجنود. (حسن، 1964م، 517/1)

ويقول البيهقي: حدثني علي بن المغيرة الأثرم عن أبي عبيدة، قال: لما نزل عتبة بن غزوان الخريبة كتب إلى عمر بن الخطاب يعلمه نزوله إياها، وأنه لا بد للمسلمين من منزل يشتون به إذا شتوا، ويكنسون فيها إذا انصرفوا من غزوهم، فكتب إليه اجمع أصحابك في موضع واحد، وليكن قريباً من الماء والرعي واكتب إليّ بصفته، فكتب إليه أي وجدت أرضاً كثيرة القصب في طرف البر إلى الريف ودونها منافع ماء فيها قصباء، فلما قرأ الكتاب، قال: هذه أرض نضرة قريبة من المشارب والمراعي والمحطب، وكتب إليه أن أنزلها الناس فأنزلهم إياها، وقد أدرك الخليفة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه الذي تمت في عهده أعظم الانتصارات الأولى في الفتوح، أهمية الاستقرار في السنوات الأولى من خلافته بتأسيس الأمصار يستقر فيها المقاتلون، وعوائلهم، وتكون قواعد الإدارة وتحركات الجيوش العربية، وأن غالبية سكان هذه الأمصار هم من المقاتلين، وأن من الأغراض الأساسية من تأسيسها هو تأمين الاستقرار، وتثبيت النظم الإدارية ولذلك سرعان ما تمت، وأصبحت من أعظم المراكز الحضرية. (العلي، 1986م، ص 5).

إلا أن هناك اختلافاً حول زمن وتاريخ تمصير البصرة وتاريخ إنفاذ عتبة عليها، فالبلاذري يذكر أن أبا موسى ولي البصرة في سنة 16هـ، ويقال 17هـ والثابت أن أبا موسى ولي في البصرة سنة 16هـ، وتقرب هذه الرواية قول سيف بن عمر أن البصرة مصرت في ربيع "16هـ / 637م". (الطبري، 1990م، ص 41)، وفي رواية أخرى عن الواقدي أنها مصرت سنة 17هـ / 638م قبل الكوفة بستة أشهر، وأن نزول عتبة فيها كان سنة "16هـ / 637م". (العلي، 1986م، ص 41)، وأما المسعودي فيذكر أن نزول المسلمين فيها سنة 14هـ / 635م وأن تخطيطها لم يتم إلا في سنة "17هـ / 638م". (المسعودي، 1989م، 328/2). فبذلك يمكن للباحث أن يصل إلى نتيجة بأن هناك حادثتان واضحتان في ظهور البصرة:

- أولهما: تمثلت في الإقامة المؤقتة سنة 14هـ، وبعد معركة البويب مباشرة.

- والثانية: هي الإقامة الدائمة المصحوبة بالتخطيط الحضري، والبناء، بعد النصر في القادسية.

تخطيط البصرة: من المعلوم أن العرب هم الذين اختاروا موضع البصرة، واختطوا خططها، وكانوا أول من نزلها، وبنوا فيها المساكن بعد تمصيرها، ويذكر الدينوري أن عتبة بعد اختيار موضع المدينة خط نافع بن الحارث، فكان نافع أول من خطط خطة البصرة. (الدينوري، د.ت، ص 117)، وتشير رواية الأسود بن سريح التميمي أنهما اللذان اختطتا هذه المدينة، وصف ابن حوقل البصرة

بقوله: فهي خطط وقبائل كلها، يحيط بغربها البادية مقوسة، وبشرقيها مياه الأنهار مفترشة. (ابن حوقل د.ت، ص 212-213).

وفي المرحلة الأولى كانت هناك اضطرابات في خططها وعدم انتظام هيئتها العمرانية، وكل ما له علاقة بشوارعها وأسواقها، ومنازل أهلها، ومحلاتهم فاليّسات البارزة في هذه المرحلة مازالت تخدم الاحتياجات العسكرية. (ناجي، 1986م، ص 139)، وإنّ التطورات العسكرية السريعة، والانتصارات الباهرة، قد جاءت بنتائج مهمة على وضعية موقع البصرة، إبّان ولاية أبي موسى الأشعري 17هـ - 25هـ / 638 - 645م فساعدت هذه الانتصارات على اجتذاب أعداد جديدة من المقاتلين، وازداد بذلك عدد السكان، واختلطت القبائل في المدينة بعضُها ببعض، لعدم وجود أبنية مستقلة، الأمر الذي دفع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إلى أن يأمر الوالي الأشعري أن يجعل لكل قبيلة محلة، وأن يأمر الناس بالبناء.

وبدأ التخطيط بتخطيط المسجد الجامع باعتباره نواة المدينة، وبجواره عن قرب دار الإمامة، ثم اقتطعت القبائل خططها حول المسجد، وخططت الشوارع فجعلوا عرض شارعها الأعظم ستين ذراعاً، وجعلوا عرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعاً، وجعلوا عرض كل رُقاق سبعة أذرع وجعلوا وسط كل خطة رحبة فسيحة لمربط خيلهم وقبور موتاهم، وتلاصقوا، ولم يفعلوا ذلك إلا عن رأي اتفقوا عليه، أو نص لا يجوز خلافه، وتُركت حرية تقسيم الخطط للقبائل التي اختطت وبنّت منازلها، وكانت المنازل من القصب الذي كان إذا غزوا نزعوه ووضعوه حتى يرجعوا من الغزو، فإذا رجعوا أعادوا بناءه. (عثمان 1999م، ص 65). وانتظمت خطط المدينة أكثر، حينما شب الحريق فيها، فالتهم البيوت والوحدات العمرانية المبنية من القصب، فاستأذن أهل البصرة الخليفة أن يعيدوا بناء ما احترق باللبن بدلاً من القصب، فوافق على ذلك، ومن ثم ظهرت البدايات الأولى للتخطيط الحضري، حيث اتسعت الخطط، ومن ثم ازداد سكانها وتم تقسيمها إلى أماكن وأحياء، كان قد مكث في كل منها، قبائل أو عدة عشائر، كانت قد استقرت وشكلت التطور الاجتماعي بهذه المدينة. (العلي، 1986م، ص 28)، فيصل الباحث إلى نتيجة أنه تم إعداد الخطط وتوزيع قبائلها حسب عادات العرب في الانتشار بالمناطق الجديدة.

بناء البصرة: بُنيت البصرة في أرض مستوية مكشوفة متصلة بالصحراء، وخالية من العوارض أو مرتفعات تسد حدودها وتعطل توسعها وامتدادها، وفي بداية الأمر كان البناء من القصب، فبنيت المساكن من القصب والمسجد ودار الإمامة، والديوان، فكانوا إذا خرجوا للفتح، نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه حتى يرجعوا من الفتح، فإذا رجعوا أعادوا بناءه، وشرع أبو موسى في تغيير هيئة منشآت البصرة الدينية والإدارية والمدنية، فبنى المسجد ودار الإمامة باللبن والطين، وأمر الناس بالبناء في الخطط التي صرفت لهم.

واتجه لحل مشكلة تزويد المدينة بالمياه الصالحة للشرب، ولاسيما أن المياه التي كانت تصل إليها كانت مالحة، فبدأ مشروع حفر نهر الأبله الذي تم في عهد عبد الله بن عامر 25 - 36 هـ - 236 - 657م هو وغيره من مجموعة الأنهار التي زودت المدينة بالماء

اللازم، ووصلتها تجارياً بالأقاليم المجاورة فدفع ذلك نموها وازدهارها، وساهم في تطوير البصرة بسياسته التي هدفت إلى تشجيع الثمران بالمدينة، فقام بشراء عدد من الدور وبني في موضعها سوقاً، ولاسيما أن سوق المريد لم تعد قادرة على مّد الحاجات الجديدة للمدينة (عثمان 1999م، ص 65 – 66)

وكانت بيوت البصرة تتميز بأنها واسعة الصحن رفيعة السمك، عظيمة الأبواب (ابن قتيبة، د.ت، 3/312)، فقد أمرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال: "فَعَرَضُوا الحِيطَانَ وَأَطِيلُوا السَّمَكِ، وَقَارِبُوا بَيْنَ الخَشَبِ". (الجاحظ، المصدر السابق، 2/294)، وقام بتصميم مدينة البصرة أبو الحرباء عاصم بن دلف من بني غيلان بن مالك بن عمر بن تميم، وخط جامعها الكبير محجن الأدرع السلمي من بني سهم، فصار طولها ستة أميال، وعرضها ثلاثة أميال، ثم أمر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الناس بالسكن فيها، وسير إليها أشراف من بطون القبائل العربية. (ابن الغملاس، 1962م، ص 3-4)، فالبناء من اللبن يُعَدُّ المؤشّر الأول في تكوين هوية البناء العربي الجديد في البصرة، حيث ساهم في وضع الأساس الأول للتمدن والاستقرار، والذي أدى بدوره إلى النقلة الحضارية من الريف إلى المدينة.

المعالم العمرانية: كان تشييد المعالم العمرانية بالطين الذي يمثل ظهور وبروز التطور العمراني ودخوله في بناء المسجد الذي يعتبر النواة الأولى التي تتوجه إليها أنظار المسلمين، ثم توالى هذه الإمدادات العمرانية الجديدة، فسار منهج تخطيط المدن الإسلامية ومراحل انتشار تكويناتها المعمارية في توافق تام مع أحكام البناء التي أقرها فقهاء المسلمين استناداً إلى الكتاب والسنة. (عثمان، 1999م، ص 32)، وبلا شك كان ذلك تتبعاً للتخطيط المعماري الذي بدأ بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن هذه المعالم ما يأتي:

المسجد الجامع: يعد أول وحدة عمرانية تأسست في البصرة - وكان بناؤه في الأول بالقصب وقد أعيد بناؤه باللبن والطين وسقفه كان من العُشب وتمت الزيادة في مساحته. (ناجي 1986م، ص 136)، ويمثل محوراً رئيسياً من محاور تخطيطها، واقتضت وظائفه الدينية، والتعليمية، والسياسية أن يكون موضعه وسط المدينة وليكون قريباً لكل موضع فيها، وتوجهت خطط شوارعها الأساسية إلى المسجد الجامع الذي يتوسطها (عثمان، 1999م، ص 175).

وكان المسجد في بداية اختطاطه وبناؤه بناءً ثابتاً، وإنما كان مجرد ساحة من الأرض محددة بالقصب، وكان قد اتخذ شكل المسجد النبوي الشريف من المصلى المستطيل الأفقي، والصحن ذي المجنبات (مهدي، 1995م، ص 541)، وظل الجامع على حاله إلى أن أضاف إليه الوالي الجديد عبد الله بن عامر زيادات وإضافة جديدة ولكن الزيادة الكبيرة تمت للمسجد الجامع في ولاية زياد بن أبيه، وبناه بالأجر، والجص، وسقفه بالساج وكان زياد أول من بنى المقصورة بالمسجد، وله عدة أبواب منها: باب بني مجدر وباب عثمان وباب الرحبة، أمّا منارته فتعد أول منارة في الإسلام، وقد بنيت عام 45هـ/665م (ابن مسكويه، 1914م، 1/365).

لم يقتصر الجامع على العبادة فحسب، ولا على عقد الحلقات العلمية فيها، وكان منذ أول العهد به دارُ ندوة ومجلس سكر، إلى جانب كونه موضعاً للصلاة ومكاناً للعبادة ومركزاً للقضاء وفصل الخصومات، وبذلك يمكن اعتباره بيئة مركزية تتمثل فيها الصورة العقلية والنزعات النفسية، والتيارات الاجتماعية لما حوله، كما كان المسجد أيضاً منبر التبليغ من قبل الخلفاء، والولاة للناس، فكانت تلقى فيه خطب الجهاد والحروب، وخطب التهديد والوعيد، وأخذ البيعة للخليفة وإلزام الناس بالطاعة والخضوع، حيث كان مكاناً يخطب على منبره فطاحلة العلماء والزهاد والفقهاء والأدباء، وبني بعده سبعة مساجد منها مسجد الأساورة، ويبدو أنه كانت كل قبيلة أو عشيرة تقيم لنفسها مسجداً. (ابن الفقيه د.ت، ص 191).

دار الإمارة: دار الإمارة هي المكان الذي يقيم فيه الوالي، وما يتصل به والدواوين فهي من أهم الأبنية في المدينة. (العلي، 1986م، ص 76)، أما بناؤها فكان بالقصب أيضاً، وتبدلت هذه المادة العمرانية أثناء ولاية الأشعري إلى اللبن والطين كالمسجد الجامع. (ناجي، 1986م، ص 138)

ويفهم الباحث أن الضرورة الوظيفية أوجبت مجاورة دار الإمارة للمسجد الجامع وحيث كان بناء الرسول صلى الله عليه وسلم منزله ملاصقاً للمسجد الجامع، فكان ذلك المثل قد اتبع في إنشاء دار الإمارة مجاورة للمسجد في المدن الناشئة مثل البصرة والكوفة والفسطاط. (زيادة نقولا، 1965م، ص 65)، وعليه فقد أصبحت هذه الظاهرة تقليداً معمارياً محققاً للغرض الذي هدف له زياد، وهو ألا يتخطى الخليفة أو الوالي رقاب المصلين، بل ينفذ مباشرة من جدار القبلة. (عثمان، 1999م، ص 239).

ويبدو أن دار الإمارة لم تعد بعد فترة ولاية زياد بن أبيه، مقرأً لأُمير البصرة، إذ كان لعبيد الله بن زياد قصرٌ بعيدٌ عن المسجد يدعى البيضاء، ولما تولى الحجاج بن يوسف الثقفي، قام بهدم دار الإمارة الملاصق للمسجد الجامع، فبقيت المدينة دون دار للإمارة، حتى أعاد بناءها صالح بن عبد الرحمن. مستخدماً الآجر والجص في ذلك. (الحموي، د.ت، 433/1، 434).

قصور البصرة وشوارعها: اعتماداً على أقوال الجغرافيين والمؤرخين، فإن مدينة البصرة عندما خططت تخطيطاً قبلياً أخذ بعين الاعتبار تنظيم شوارعها وبالأحرى شارعها الرئيسي المسمى شارع المُرَبَّد العمود الفقري للمدينة والذي يشطرها إلى جانبين شمالي وجنوبي، مع وجود عدد كبير من الشوارع الفرعية الأخرى والدروب والسكك والمسالك الفرعية، حتى قيل: إنه كان من الصعب التجول في دروبها دون دليل. (ناجي، 1986م، ص 148)، وبرزت الشوارع، كمحور رئيسي في التخطيط منذ فجر التاريخ وتطور التخطيط العمراني بالمدن بنمو الحضارات وبارتقائها، وتنوعت تخطيطات المدن بتنوع واختلاف المظاهر الحضارية، من عصر إلى آخر، وأصبح تخطيط شبكات الطرق في المدينة، من بين الأسس التي تصنف عليها نوعيات تخطيطات المدن قديمها وحديثها. (محمد، 1965م، ص 23-26).

وفي مدينة البصرة برزت فيها الشوارع فجعلوا عرض شارعها الأعظم وهو مَرَبَّدُها ستين ذراعاً، وجعلوا عرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعاً وجعلوا عرض كل رُفَاق سبعة أذرع، وأما الدروب والسكك والمسالك الفرعية، فهي كثيرة العدد، وكانت أسماء هذه

الدروب تعكس طبيعة الحياة في المدينة، أما السكك فقد كانت هناك سكة العطارين، وسكة الذباحين، وهناك سكك يغلب عليها الطابع القبلي، كسكة قريش، وسكة الموالي، وسكة البخارية، وهي إشارات إلى العناصر غير العربية التي استوطنت البصرة. (العلي، 1986م، ص 53).

وعلى العموم فإن هذه السكك والدروب لم تكن مبلطة، لكن الاهتمام بنظافتها كان قائماً على ما يبدو، فيذكر أن زياد أنشأ في البصرة مصلحة مختصة مسؤوليتها رفع الأزبال من دروب المدينة (هشام، 1986م، ص 320)، أما عن القصور فقد أخذت مدينة البصرة في بداية تطورها العمراني طريقاً إلى التمدن والاستقرار، وأن في بداية ازدهارها أنشئت فيها القصور الفخمة والدور الكبيرة، التي أعطت ملامح قوية لشخصيتها الجديدة، ولعبت دوراً في تنمية الحياة العقلية والأدبية منها، فضلاً عن كونها تعبر عن رسوخ التمدن والاستقرار. (زكي، 1971م، ص 30)

وعند تولية عبد الله بن عامر كريكز 25هـ / 645م على البصرة أظهر رغبة كبيرة في البناء والعمران، فبذل جهده وسخاءه في بناء بعض الدور الجميلة. وأنشأ قصرين عامرين بأمر سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، كان يضرب بهما المثل، ولهذا تعد فترة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه أول أدوار البصرة العمرانية. (ابن الفقيه د.ت، ص 167)، وقد ذكرت المصادر التاريخية والأدبية كثيراً من تلك القصور والديار الفخمة، كالقصر الأحمر، والقصر الأبيض، وقصر النواحق.

وإلى جانب ذلك بنيت قصور ودور كبيرة، كانت ملكاً لبعض رجال البصرة البارزين، نذكر من أشهرها: قصر ابن عفان الذي كان دار ضيافة ينزلها من يقدم البصرة من أهل المدينة، وكذلك قصر أنس الذي ينسب إلى أنس بن مالك خادم الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك القصر الأبيض الذي كان ملكاً لعبيد الله بن أبي بكر (الطبري، 1990م، 5 / 485)

وامتازت هذه القصور بكثرتها وفخامتها، وكان معظمها من الآجر، ويلاحظ على هذه الأبنية أنها يغلب عليها النقش الفارسي؛ لأن معظمها بُني بأيدي بنائين من الفُرس، يَمَن أُسِرُوا في الفتوحات، ومن الذين سكنوا البصرة، كالبخارية والأساورة. (ابن الفقيه د.ت، ص 191)، وكانت معظم القصور تُبنى في أطراف المدينة وذلك بحثاً عن فضاءٍ أرحب وهواءٍ أنقى، ولتكون بعيدة عن عيون الفضوليين، فضلاً عن سهولة تأمين الحماية لها. (العلي، 1986م، ص 56).

أما عن الديار، فقد انتشرت هي الأخرى، وكان أقدمها دار نافع بن الحارث، وكذلك دار الزبير التي تُعد من أبرز وأجود الدُور في البصرة وكانت قد بنيت سنة 32هـ/652م، وكذلك دار العباس بن ربيعة بن الحارث، الذي كان قد أعطاه إياها الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، أما في ولاية زياد فقد بنى دارَ الرزق، وبنى دارَه وبنى الحمراء ولم تنسب إليه، وبنى سكة فأسكنها أربعة آلاف من البخارية، فقليل سكة البخارية (العلي، 1986م، ص 56). وكذلك دار عبد الله بن خليل، وهي من الدور العظيمة في ذلك الوقت وأيضاً دار عبد بن زياد (ابن الفقيه د.ت، ص 191)، وأما الشوارع فقد برزت كمحور رئيس في التخطيط منذ فجر العمران كما ذكرنا. (حماد 1965م، ص 23 - 26).

الأسواق: إنَّ نشأة الأسواق في المدن الإسلامية كان من محاور النهضة بعمارتها، فهو من الركائز الاقتصادية بها؛ لأن المدن تتفاضل بالأسواق وكثرة الأرزاق فكانت هذه الأسواق محط الازدهار والاتجار، فكانت نشأتها عبارة عن ساحة من الأرض خالية من البناء، فكانت أسواق مدن الأمصار في بداية أمرها، فضاء لا بناء فيه، ولا سُقُوفَ سوى ظلال توارى من الحصر، كان يضعها الباعة لتُظِلَّهم في الأماكن التي يختارونها للبيع والشراء. (عثمان، 1999م، ص 252).

وفي البصرة لم ترد أيُّ إشارة إلى عتبة بن غزوان وأبي موسى الأشعري حينما وضعوا مخطط المسجد ودار الإمارة، والمنشآت الإدارية الأخرى، وخططاً لمجموعة من الأسواق، فاقترنت المدينة على سوقها المشهور في البصرة وهو المُرَيْد. (ناجي، 1986م، ص 190)، وقد كان سوقُ المُرَيْد في الأصل سوقاً للإبل (الأفغاني، 1993م، ص 408)، ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس، وبه كانت مفاخرات الشعراء والخطباء. (ياقوت الحموي، د.ت، 5/ 98)، وسوقُ المُرَيْد سوقُ البادية في البصرة، وكانت تتم فيه عمليات التبادل البضائعي (ناجي، 1986م، ص 140) حيث كان يغشاه أخلاطٌ من الناس، يلتصقون فيه التجارة، أو التسوق أو التخرج من مشاغلهم. (ياقوت الحموي، د.ت، 5/ 98)، وقد صار سوق المريد في الإسلام يطلق عليه "عكاظ الإسلام" يقوم فيه الخطباء، ويتناقض فيه الشعراء (الرافعي، 1974م)، (386/1)

ثم بدأ احتياج الأهالي إلى أسواق أخرى في مناطق مختلفة في المدينة التي شهدت اتساعاً في الرُقعة والعُمران، وبذلك طرأ تطور على سوق المريد، الذي لم يكن مناسباً لمجمل العمليات والفعاليات التجارية في المدينة، حيث كان بعيداً عن الأنهار، وقريناً للصحراء، فقام عبد الله بن عامر بإعادة النظر في اختيار موضع جديد للسوق حيث اشترى بعض البيوت قرب قناة "أم عبد الله" وهي فرع من قناة الفيض، وبعد ذلك قام بمدمها، وبناء السوق محلها. (ناجي، 1986م، ص 14)

ويخلص الباحث إلى أن أهمية البصرة التجارية، قد اشتهرت أسواقها المتنوعة، وحرفها المختلفة، كسوق العلافين، وسوق النحاسين وسوق للأقمشة منها الأقمشة الهندية والخراسانية، وأيضاً يوجد في السوق موقف للعمال الذين يشتغلون بأجور يومية (السامرائي، 1987م، ص 211).

الحمامات: لقد كان إنشاء الحمامات في المدينة الإسلامية لحاجات وظيفية مرتبطة بدعوة الإسلام إلى النظافة والتطهر، وقد نظمت سلطات المدينة إنشاءها، وما يتصل بها من تزويدها بمصادر المياه وقنوات الصرف، وما يصدر عنها، وتحكم أيضاً في تحديد مواضعها. (عثمان، 1999م، ص 246)، فقد كان الولي زياد بن أبيه، يمنع بناء الحمامات إلا في الأماكن التي لا تضر بأحد. (ابن سعد، 1969م، 7 / 10)، وكان بالبصرة عدد كبير من الحمامات، ربما قارب عددها إلى الثمان مئة حمام، وقد تزايدت مع ازدهام السكان وكثرة الوافدين.

والحمامات نوعان: حمامات عامة وحمامات خاصة وهي التي في بيوت الأمراء والأغنياء وفي القصور، فكان أول حمام بُني بالبصرة، حمام الأمراء، بناه عتبة بن غزوان، ثم بنى مسلم بن أبي بكر حماماً، وهو أول حمام بني للناس فكان يستغله في كل جمعة، وبذلك

أصبحت الحمامات منتشرة في مدينة البصرة مما أعطت شكلاً معمارياً كان له الدلالة على الاستقرار. (ابن سعد، 1969م، 2 / 10)، وحرص في تصميمها على طهارة الماء مما استوجب تصميم أحواض الماء وقنواته بطريقة معينة تكفل ذلك، كما نظمت الأحكام الفقهية الإسلامية العمل داخل هذه الحمامات، وخضعت لإشراف المحتسب خضوعاً مباشراً، يكفل استمرار عملها وفق القواعد والقيم الإسلامية، وتمشيًا مع هذا الاتجاه أنشئت حمامات خاصة بالنساء وأخرى بالرجال (عثمان، 1999م، ص 247). **السجون والمستشفيات:** بُني أول سجن في البصرة على يد عتبة بن غزوان حين بنى دار الإمارة والمسجد من القصب، ثم بني من اللبن، ثم بناه الحجاج أثناء ولايته على البصرة، فكان يسجن فيه من غضب عليه، ومن المجرمين، قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (سورة البقرة، الآية 179).

وأما عن المستشفيات، فقد كانت البصرة من أعظم مدن العالم الإسلامي في علو شأن الطب، وكانت أهم المستشفيات عند نشوء البصرة: مستشفى المجانين، فسُوي فيما بُدء بمارستان البصرة، فجمعوا فيها المجانين، وعينوا فيها أطباء لعلاجهم، ويعتبر المستشفى من المنشآت التي أنشئت لتوفير الخدمات العلاجية والطبية للعامة، وواكب إنشاء البيمارستانات النمو العمراني للمدينة الإسلامية وكان الوليد بن عبد الملك أول من أنشأ البيمارستان في الإسلام وكان ذلك في سنة 88 هـ، كما اهتم بتخصيص مرتبات مالية للعلماء والمجدومين والزمنى وبذلك استمرت هذه المنشآت وكثرت واضحة في عصور ازدهار المدن التي أنشئت فيها. فساهمت في تطوير حياة مجتمعاتها تطوراً انعكست آثاره على مظاهر حياة مجتمع المدينة الإسلامية في تلك العصور (عثمان، 1999م، ص 249).

مصادر المياه: يري الباحث أن مسألة توفير المياه للشرب من أصعب المشاكل التي واجهها أهالي المدينة منذ تأسيسها، فالبصرة كانت تبعد مسافة حوالي اثني عشر ميلاً إلى الغرب من نهر شط العرب، ويبدو أن المنطقة كانت خالية من الأنهار الفرعية التي توصل المياه العذبة. (ناجي، 1986م، ص 143)، فكان أهل البصرة وقتئذ يعتمدون على مياه البطيحة، التي كانت أعذب من مياه دجلة، وكان ماء البطيحة يصل إلى أطراف المدينة، ومن الصعب تحديد موقعه، لذلك لقي أهل البصرة معاناة بسبب ندرة المياه، حتى إنهم كانوا قد اشتكوا للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والذي كان قد أمر بحفر الأنهار في هذه المدينة حتى يؤمن عنصر المياه بها، ومن هذه الأنهار:

نهر الأبله: جاء حفر هذا النهر، إثر إجراء اتخذه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما اشتكى أهل البصرة، حيث أمر أبا موسى الأشعري والي البصرة بحفر نهر الأبله، فكان من أهم أنهار البصرة (العلي، 1986م، ص 159)، ويبلغ طوله أربعة فراسخ ما بين البصرة والأبله، وعلى جانبي هذا النهر قصور وبساتين متصلة، كأنها بستان واحد، قد مدت على خيط ورصفت بالمجالس الحسنة والمناظر الأنيقة والأشجار المثمرة (ابن حوقل، د.ت، ص 212)، وقد وصف أحد الشعراء هذا النهر بقوله:

يا حبذا نهر الأبله منظرًا إذا مدّ في إبانة الماء أو جزر (ياقوت الحموي، د.ت، 439/1)

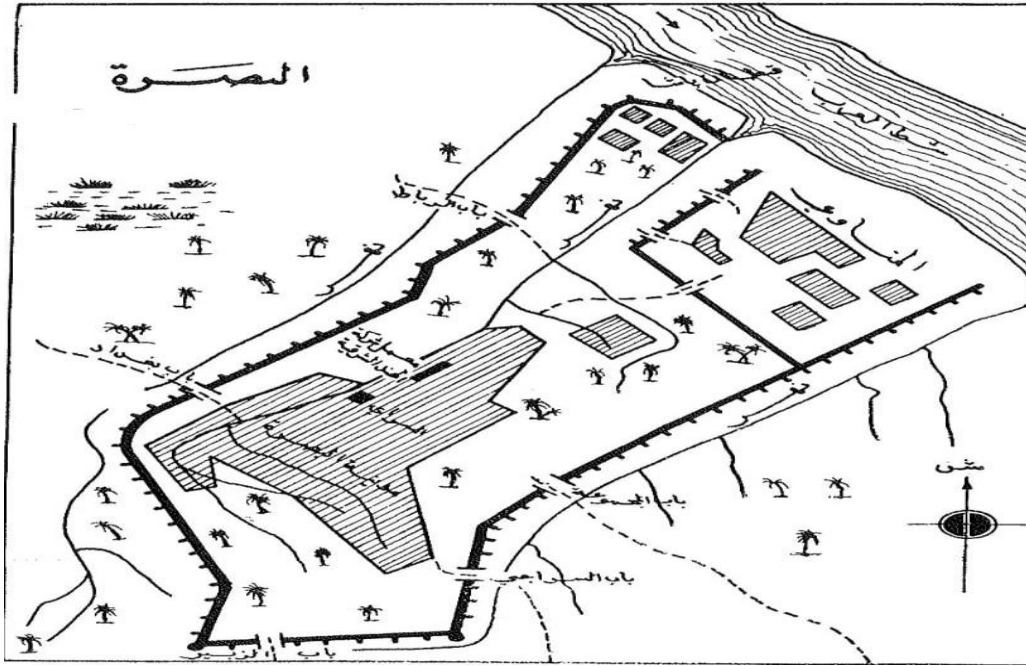
ويبدو أن الحفر لم يكن منتظماً أو عميقاً، فأعيد حفره وتعميقه في زمن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه بمجرى جديد قريب من الحفر القديم ويسمى اليوم نهر العشار، وتقع عليه مدينة البصرة الحديثة (الكاتب، 1971م، ص 94، 103)، ويتصل نهر الأبله بنهر معقل، مقوساً أتياً من جنوب البصرة القديمة، ماراً بمدينة البصرة نفسها، وينتهي إلى نهر الأبله جنوباً. (العلي، 1986م، ص 159).

نهر معقل: ويعد هذا النهر من أهم المشاريع التي نفذت في المدينة، بعد نهر الأبله فكان يوازيه في الأهمية، وقد ارتبط اسم النهر باسم الصحابي معقل بن يسار" الذي أشرف على حفره، بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقيل: إنه حفر في زمن ولاية زياد بن أبيه 45-53هـ / 665-673م في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وقد أشرف على حفره معقل بن يسار" فنسب إليه. (ياقوت الحموي، د.ت، 5 / 329)، ومن المرجح أن زياداً قام بتوسيعه وتنظيمه ضمن ما قام به من أعمال مهمة في مجال تنظيم المدينة.

ويتفرع هذا النهر من دجلة شط العرب من جهة الشمال الشرقي لمدينة البصرة، ويتجه مستقيماً نحو الغرب، ثم ينحرف نحو الجنوب على شكل قوس وينتهي بمدينة البصرة شمال الجانب الغربي منها حتى يلتقي بنهر الأبله ويكونان معاً قناة واحدة تسير وتصب في المنزل المعروف بنور عبد الله، وهو منصرف جميع القنوات. (المقدسي، المصدر السابق، ص 17).

نهر الأساورة: لقد تم حفر هذا النهر سنة 31هـ / 651م وذلك خلال ولاية عبد الله بن عامر 25 - 36 هـ / 645 - 656م ويبدأ هذا النهر من دار فيل مولى زياد ويجري في الجهات الجنوبية الغربية من البصرة، حيث كانت خطط تميم. (العلي، 1986م، ص 160).

الأنهار الأخرى: وتم حفر أنهار أخرى منها: نهر أم عبد الله الذي كان يمر وسط البصرة، وتم حفره في ولاية عبد الله بن عامر، وقد استمرت جهود الخلفاء، والولاة في تنفيذ مشاريع الري للبصرة، فقام زياد بن أبيه بحفر نهر أم حبيب ونهر البنات، ونهر أبي موسى (ابن الفقيه، د.ت، ص 196)، وكذلك أمر الحجاج بن يوسف الثقفي "75 - 95 هـ / 694-713م"، بحفر عدة أنهار منها نهر العين، ونهر الفيض، ونهر الفندل ونهر أبي بكرة، حيث أدرك الباحث أن إصلاح الأنهار والبحث عن موارد مياه الشرب جاء لضرورة معالجة أكبر مشاكل استمرار توهج مدينة البصرة السكاني والاقتصادي.



شكل رقم (2) يوضح أثار البصرة وأبوابها ومخارجها

الخاتمة:

وفي ختام هذا البحث، يتبين لنا أن مدينة البصرة لم تكن مجرد مدينة عسكرية أقامها المسلمون لتكون حصناً وقاعدة للفتوحات، بل كانت تجسيدا حقيقيا لرؤية إسلامية متكاملة في التمدن وبناء الدولة، إذ جمعت بين التخطيط العمراني المحكم، والتنظيم الاجتماعي القبلي المتنوع، والبنية الاقتصادية القوية القائمة على التجارة البحرية والزراعة، والحركة العلمية والثقافية الواسعة التي جعلتها منارة للفقه والأدب واللغة.

وقد أثبتت البصرة قدرتها على التكيف مع التحديات البيئية والجغرافية، فحوّلت موقعها القريب من الصحراء والمياه المالحة إلى فرصة لازدهار عبر حفر الأنهار وإنشاء الموانئ والأسواق، مما جعلها نموذجاً رائداً في التخطيط الحضري الإسلامي يوازي المدن العريقة كالقوفة والفسطاط والقيروان.

ولعل ما يميز البصرة أكثر من غيرها هو تحولها السريع من خيام القصب إلى قصور الآجر، ومن معسكر الجند إلى ملتقى التجار والعلماء، مما يعكس روح المرونة والابتكار التي ميزت المجتمع الإسلامي في قرونه الأولى. وهكذا تظل البصرة شاهدة على عبقرية التمدن العربي الإسلامي، وقدرته على الخلق والإبداع في أحلك الظروف وأصعبها، لتكون مثالا يحتذى في دراسة تاريخ المدن الإسلامية ودورها في بناء الحضارة الإنسانية.

ومن خلال التقصي والتحليل توصل البحث إلى مجموعة من النتائج أبرزها:

1. تعددت التفسيرات اللغوية لتسمية "البصرة" بين الدلالة على طبيعة التربة (الحجارة البيضاء، أو الرخوة، أو السوداء)، وبين الدلالة على تقلب مناخها، ورجح البحث أن التسمية مرتبطة بطبيعة الأرض الجغرافية التي قامت عليها المدينة.
2. تم اختيار موقع البصرة وفق مواصفات دقيقة حددها الخليفة عمر بن الخطاب، إذ يجمع الموقع بين القرب من الماء والرعي، وبين البعد عن البحار لتسهيل الإمداد العسكري، كما يقع عند ملتقى البحر والسهل الخصيب والصحراء، مما جعلها مركزاً استراتيجياً فريداً.
3. أثبت البحث أن البصرة كانت مأهولة بالسكان قبل الفتح الإسلامي، وكانت تضم معالم بشرية قديمة كـ"الخريبة" و"الأبله" و"كاظمة"، وقد استفاد المسلمون من هذه المواقع في تأسيس مدينتهم، خاصة في الجانبين العسكري والتجاري.
4. توزعت سكان البصرة في مرحلة التمهيد وفق نظام "الأخماس" القبلي الخمسة (أهل العالية، تميم، بكر بن وائل، عبد القيس، الأزد)، وساهم هذا التنظيم القبلي في تحقيق الاستقرار الاجتماعي، رغم ما صاحبه من تنافس، كما احتضنت المدينة عناصر غير عربية كالموالي والأساورة والزنوج، مما منحها طابعاً سكانياً متنوعاً.
5. تطور النسيج العمراني للبصرة من مرحلة البناء بالقصب المؤقت إلى البناء باللبن والطين، ثم إلى الآجر والجص، وقد مثل المسجد الجامع نواة المدينة، واتصلت به دار الإمارة، وانتظمت حولهما الخطط القبلية والشوارع والأسواق، مما يعكس تخطيطاً حضرياً متكاملًا استلهم نموذج المدينة النبوية.
6. برزت في البصرة معالم عمرانية متقدمة، كالقصور الفخمة (القصر الأحمر، الأبيض، قصر ابن عفان)، والأسواق المتنوعة (كمريد البصرة الذي سمي "عكاظ الإسلام")، والحمامات العامة والخاصة، والسجون، والمستشفيات (كمارستان المجانين)، مما يدل على نضج الحياة المدنية والاهتمام بالخدمات العامة.
7. تمكنت البصرة من التغلب على أزمة المياه العذبة من خلال حفر شبكة من الأنهار الاصطناعية كـ"نهر الأبله" و"نهر معقل" و"نهر الأساورة" وغيرها، وقد ساهمت هذه الأنهار في حل مشكلة الشرب، وفي تنشيط الزراعة والتجارة، وربط المدينة بالموانئ البحرية والأقاليم المجاورة.
8. تحولت البصرة خلال فترة وجيزة من معسكر عسكري مؤقت إلى مدينة حضرية متكاملة، تجاوزت وظيفتها العسكرية إلى أدوار اقتصادية وتجارية وثقافية وعلمية، فقد أصبحت ميناءً تجاريًا يربط الخليج العربي بالهند والصين وفارس، ومركزاً علمياً وفقهياً وأدبياً، حتى قيل: "أينما ذهب في البلاد تجد تاجرًا بصريًا".

المراجع:

القرآن الكريم

- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم. (1994). *الكامل في التاريخ*. مؤسسة التاريخ العربي.
- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد. (2000). *تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار* (تحقيق محمد عبد الرحيم). دار الفكر.
- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبي. (د.ت.). *صورة الأرض*. دار الكتاب الإسلامي.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (د.ت.). *المقدمة*. دار الشعب.
- ابن دريد، أبو بكر بن الحسين الأزدي البصري. (1979). *الاشتقاق* (تحقيق عبد السلام هارون). دار المسيرة.
- ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب (د. ت)، دار الجبل.
- ابن عبد ربه، أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد. (د.ت.). *العقد الفريد* (تحقيق محمد العريان). دار الفكر.
- ابن الغملاس. (1962). *ولاة البصرة ومستلموها*. دار منشورات البصري.
- ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني. (د.ت.). *مختصر كتاب البلدان* [أو عيون الأخبار]. دار الكتاب العربي.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم. (د.ت.). *عيون الأخبار*. دار الكتاب العربي.
- ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب. (1914). *تجارب الأمم*. مطبعة التمدن الصناعية.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. (د.ت.). *لسان العرب*. دار صادر.
- الأعظمي، علي. (2001). *شريف مختصر تاريخ البصرة*. مكتبة الثقافة الدينية.

- الأفغاني، سعيد. (1993). أسواق العرب في الجاهلية والإسلام. دار الآفاق.
- باقر، طه ناصر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، شركة دار الوراق، (2009م).
- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز. (1983). معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع (تحقيق مصطفى السقاء). عالم الكتب.
- بيلا، شارل. (1985). الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء (ترجمة إبراهيم الكيلاني). [د.ن].
- حسن، حسن إبراهيم. (1964). تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. مكتبة النهضة المصرية.
- حماد، مصطفى محمد. (1965). تخطيط المدن وتاريخه. [د.ن].
- الحموي، ياقوت شهاب الدين أبي عبد الله. (د.ت.). معجم البلدان. دار صادر.
- الحميري، محمد عبد المنعم. (1957). الروض المعطار في خير الأقطار (تحقيق إحسان عباس). مكتبة لبنان.
- الدمشقي، شمس الدين. (د.ت.). نخبه الدهر في عجائب البر والبحر. [د.ن.].
- الدوري، عبد العزيز. (1974). تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري. [د.ن.].
- الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود. (د.ت.). الأخبار الطوال (تحقيق عمر فاروق الطباع). دار الأرقم.
- الرافعي، مصطفى صادق. (1974). تاريخ أدب العرب. دار الكتاب العربي.
- زكي، أحمد كمال. (1971). الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري. دار المعارف.
- السامرائي، إبراهيم خليل. (1987). الملامح السياسية والحضارية لمدينة البصرة من خلال كتب ألف ليلة وليلة. مجلة المؤرخ العربي، (34). 117-134.
- سعد، محمد بن سعد بن منيع [ابن سعد]. (1968). الطبقات الكبرى. دار التحرير للطباعة.

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. (1990). تاريخ الرسل والملوك (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم). دار المعارف.
- عبد الستار، عثمان محمد. (1999). المدينة الإسلامية (ط1). دار الآفاق العربية.
- العسكري، سليمان. (1972). التجارة والملاحة في الخليج العربي. [د.ن.].
- علي، صالح أحمد. (1969). التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري. [د.ن.].
- عمادي، محمد حسن عبد الكريم. (1977). التجارة وطرقها من الجزيرة العربية بعد الإسلام حتى القرن الرابع الهجري. [د.ن.].
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود. (1969). آثار البلاد وأخبار العباد. دار صادر.
- الكاتب، طارق. (1971). شط العرب وسط البصرة. [د.ن.].
- ماسينون، لويس. (1981). خطط البصرة وبغداد (ترجمة إبراهيم السامرائي). المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين. (1987). مروج الذهب ومعادن الجوهر (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد). مطبعة المكتبة العصرية.
- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله. (1904). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. مطبعة بريل.
- المهدي، عبد الرحيم عبد الحسين. (1995). تاريخ الحضارة العربية الإسلامية. الجامعة المفتوحة.
- ناجي، عبد الجبار. (1986). دراسات في المدن العربية الإسلامية. مطبعة جامعة البصرة.
- النبروي، فتحية. (1983). الخلفاء الراشدون. مكتبة النهضة العلمية.